البعثات البريطانية في العراق خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

م. د. أمير أحمد رحيم الشمري
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية

British missions in Iraq during the first half of the nineteenth century

Dr. Amir Ahmed Rahim Al-Shammari
University of Babylon/ College of Basic Education
bas296.ameer.ahmed@uobabylon.edu.iq

الملخص:

بدأت مخاوف البريطانيين تكبر بعد التوسع الروسي في الدولة العثمانية، مما اعطى انطباع ان جوهرة التاج البريطاني (الهند) ستسقط بيد الروس، ولهذا ذهب الرأي الى اتباع خطوات اكثر جدية بالحفاظ على هذه الجوهرة من خلال البحث عن ممرات جديدة وامنة ومنها عبر العراق والخليج العربي، لذا بدأ البريطانيين منذ بداية القرن الثامن عشر بأرسال البعثات التجارية والاستكشافية والاثارية وبعثات لاستكشاف صلاحية مياه نهري دجلة والفرات في الملاحة، ليكونا الطريق الأقصر بين الشرق والغرب.

من خلال الدراسة تبين ان البعثات لم ترسل اعتباطاً، بل ارسلوا اول الامر بعثات استكشافية لمعرفة طبيعة المجتمع العراقي ولغاتهم ومأكلهم وملبسهم وكيف التعامل معهم، وهذا ما وجد في كتابات البعثات المرسلة الى العراق، بعد ذلك ارسلوا بعثات مسحية، وذلك لمسح انهار العراق وهل يمكن ان تكون ممر نهري بين الشرق والغرب، ثم بعد ذلك كان لهم بعثات اثارية لاستكشاف ما مكنون تحت باطن الأرض العراقية من اثار كثيرة وكبيرة تؤكد على العمق التاريخي للمنطقة.

اتضح ان هذه البعثات مرسلة لاحتلال العراق واخذ الموافقات الاصولية من قبل الدولة العثمانية للسيطرة على خيرات العراق وموارده الطبيعية، وما هي الا بداية للاستعمار البريطاني على العراق، وهي دراسة استطلاعية للكشف عن مكامن القوة ومكامن الضعف في ارض العراق وشعبه.

الكلمات الافتتاحية: العراق، البعثات، بريطانيا، الرحالة، بغداد، بابل.

Abstract:

The British fears began to grow after the Russian expansion in the Ottoman Empire, which gave the impression that the jewel of the British crown (India) would fall into Russian hands. Therefore, the opinion went to follow more serious steps to preserve this jewel by searching for new and safe passages, including through Iraq and the Arabian Gulf،Therefore, since the beginning of the eighteenth century, the British began sending commercial, exploratory, archaeological, and navigational missions to the Tigris and Euphrates rivers, making them the shortest route between the East and the West.

Through the study, it became clear that the missions were not sent randomly, but rather they first sent exploratory missions to learn about the nature of Iraqi society, their

languages, their food, their clothing, and how to deal with them. This is what was found in the writings of the missions sent to Iraq. After that, they sent survey missions، This was to survey the rivers of Iraq and whether they could be a river corridor between the East and the West. Then, after that, they had archaeological missions to explore the many large antiquities hidden under the Iraqi soil, which confirm the historical depth of the region.

It turned out that these missions were sent to occupy Iraq and obtain the necessary approvals from the Ottoman Empire to control Iraq's wealth and natural resources. This was merely the beginning of British colonialism in Iraq, and was an exploratory study to uncover the strengths and weaknesses of the land of Iraq and its people.

Opening words: : Iraq, missions, Britain, travelers, Baghdad, Babylon.

المقدمة:

اكتسب العراق اهتمام البريطانيين منذ بداية السيطرة العثمانية عليه وارسل البعثات الاستكشافية والاثارية وغيرها، واصبح لهم مقيم سياسي بأكثر من ولاية، وهذا يعطي انطباع بأهمية العراق بالنسبة للسياسة التوسعية لبريطانيا العظمى آنذاك ،لكن شهد العراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر ارسال العديد من البعثات البريطانية التي تنوعت اعمالها، منها استكشافية واثارية ومنها سياحية وغيرها من الجوانب، لكنها تتحد في هدف واحد هو خدمة المصالح البريطانية في العراق، لذا اهتم البحث في بيان أهمية هذه البعثات للاستعمار البريطاني في العراق، وبيان مدى توغل المصالح البريطانية في المنطقة، وتوضيح الاهتمام الكبير للسياسة البريطانية للعراق بسبب الموقع الاستراتيجي، وكثرة خيراته وموارده الطبيعية.

قسم البحث الى مقدمة وتمهيد وثلاث مباحث وخاتمة، خرج المبحث الأول بعنوان (التغلغل البريطاني في العراق) بين فيه مدى أهمية العراق بالنسبة لبريطانيا قبل القرن التاسع عشر وموضحا البعثات التبشيرية والاستكشافية لبريطانية لغرض التعرف اكثر على ارض وسكان الولايات في العراق، اما المبحث الثاني كان بعنوان (البعثات البريطانية الاستكشافية في العراق)، موضحا اهم البعثات التي أرسلت من قبل بريطانية في القرن التاسع عشر والتي تهتم باستكشاف الطرق وما هي اهم الموارد الطبيعية الموجودة في العراق وماهي مكامن القوة والضعف في البلد، اما المبحث الثاني فقد تطرق الى (بعثات المسح للأنهار في العراق) باحثاً عن بعثة جسني واهميتها في مسح انهر العراق وغيرها في القرن التاسع عشر، اما المبحث الثالث، جاء بعنوان (البعثات الاثارية) مبيناً اهم البعثات المرسلة من قبل بريطانية لمعرفة واستكشاف اهم الاثار في العراق وبيان حضارة العراق العريقة.

اعتمد الباحث على عدد من المصادر، منها للمؤلف زكي صالح (بريطانية والعراق حتى عام ١٩١٤م)، وكذلك كتاب جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر الى بغداد ١٨٣٤)، عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠-١٩١٤م، وغيره من المصادر العربية والمعربة.

التمهيد: التغلغل البريطاني في العراق.

حاول التجار الإنكليز الوصول الى الهند منذ منتصف القرن السادس عشر عن طريق وادي الرافدين ومن ثم الخليج العربي، وذلك بسبب عدم الاستفادة من طريق رأس الرجاء الصالح لان البرتغاليين كانوا مسيطرين عليه، لذا كان لابد من الخصول على عهود وفرامين عثمانية تضمن الحماية والمعاملة الحسنة للبريطانيين داخل الأراضي العثمانية، لذا كانت استنبول ومنطقة الخليج العربي يعدان من اقدم المراكز الذي امتد النفوذ البريطاني منهما نحو العراق [١].

يعد (انطوني جنكنسون) اول تاجر إنكليزي وطأت قدماه الأراضي العثمانية في العصر الحديث، فقد حصل على فرمان من السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ – ١٥٦٦م بالتجارة مع الدولة العثمانية وان يكون بالتساوي مع التجار الفرنسيين والتجار البنادقة وذلك عام ١٥٥٣م، غير هذا الفرمان لم يفتح الباب على مصراعيه للإنكليز للتجارة داخل الدولة العثمانية بسبب قوة التجار الفرنسيين آنذاك[٢] .

أرسل الإنكليز بعثة أخرى للتجارة مع الدولة العثمانية عام ١٥٧٥م، وهي تعد البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين الإنكليز والعثمانيين، اذ قام (ادوارد اوزبورن) وزميله (ريتشارد ستابر) من شركة الشرق الأدنى التجارية بأرسال مندوب عنهما الى استانبول للحصول على امتياز للمتاجرة مع الدولة العثمانية، وافعلا استطاع البريطانية من الحصول على اول امتياز من السلطان (المراد الثالث ١٥٧٤–١٥٩٥م)، وذكر في الفرمان العثماني والموجه الى ملكة إنكلترا: **((ان البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنكليز ونحن سوف لا نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأي فرد يبتغي تقدير صداقتنا واحساننا ومساعدتنا، لا بل وسنعتبر ارضاءهم جزءاً من واجبنا))** [٣].

وضعت هذه البعثة التجارية الحجر الأساس للتجارة الانكليزية في جميع انحاء الدولة العثمانية، لذا خرج من لندن عام ١٥٨٣م عدد من التجار الإنكليز في رحلة طويلة الى الهند فاجتازوا المسافة ما بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي عن طريق طرابلس الشام وحلب وبغداد وهرمز، لكن لم يستطيع هؤلاء التجار من الرجوع الى إنكلترا الى واحد منهم فقط وهو (رالف فتش)، لذا يعتقد ان هذه البعثة تعد اول من وصلت من إنكلترا الى العراق ومدونة في كتب التاريخ [٤] .

دون (رالف فتش) رحلته ومنها كتب على العراق وبغداد بالتحديد اذ ذكر قائلاً : **((ان بغداد كانت رمزاً مهما لتجارة الترانزيت، اذ كانت تمر بها القوافل المتجهة الى تركيا وبلاد فارس وبلاد العرب وغير ذلك من الاصقاع، وكانت البصرة مركزاً مهما لتجارة التوابل والعقاقير المستوردة من الهند عن طريق جزيرة هرمز))** [٥].

كما استطاع التاجر الإنكليزي (جون الدرد) عام ١٥٨٨م الوصول الى بغداد، وذكر ان سكانها يتكلمون ثلاث لغات (العربية، الفارسية، العثمانية)، كما وصف ابنيتها بالبسيطة للغاية وواطئة وجميعها مشيدة بالأجر

(الطين) المجفف تحت اشعة الشمس، اما جسورها فقال انه امتن من الجسر الذي شاهده مشيداً على نهر الفرات في منطقة الفلوجة[٦] .

بعد تأسيس شكر الهند الشرقية الإنكليزية عام ١٦٠٠م، بدأت منطقة الخليج العربي تدخل ضمن حسابات التوسع الإنكليزي، لكن بسبب قوة نفوذ البرتغال والفرنسيين لم يصل للعراق في القرن السابع عشر الى مرور تاجر انكليزي واحد فقط السير (وليم هجز) الذي اصبح في نيسان ١٦٨١م عضواً في مجلس إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية، ثم اصبح عاملاً وحاكماً لإدارة مصالح الشركة في خليج البنغال، وقد وصل بغداد اثناء عودته من لندن في ٢١ شباط١٦٨١م [٧] .

اما في القرن الثامن عشر فقد تزايد مرور المسافرين الإنكليز في بلاد الرافدين، وذلك نتيجة تزايد مصالحهم في الهند، ومن هؤلاء الذين زاروا بغداد (إبراهيم برسنز) الذي تزامن وجوده في ولاية بغداد خلال الغزو الفارسي لمدينة البصرة عام ١٧٧٥م، وقد تحدث الرحالة عن شجاعة متسلم البصرة سلمان اغا وعن اخلاصه وايمانه بالدفاع عن مدينة البصرة، ولعل اهم ما كتبه الدور المهم الذي لعبته القوى البحرية خلال الغز، اذ بعد وقوع الهجوم كانت هناك سفينتان لشركة الهند الشرقية الإنكليزية راسيتان في ميناء البصرة، كما وصل سفينتان من الهند لتعزيز اسطوله اطلق عليهما (دجلة والفرات) مما اكد على قوة وصلابة سليمان اغا في مقاومة الغزو الفارسي على المدينة[٨].

كما مر في البصرة المستر (توماس هوديل) الموظف في شركة الهند الشرقية الإنكليزية وبالتحديد بعد أربعة اشهر من استيلاء زعيم قبائل المنتفق على البصرة عام ١٧٨٧م، وقد وصف توماس حال البصرة قائلاً: **((لم تبق تجارة البصرة زاهية كما كانت عليه قبلاً، لكنها لاتزال المخزن التجاري الأهم في هذه الاصقاع فيثري فيها التاجر، اما حاكمها فهو تركي وسكانها عرب وقد توطنها اسر تركية))** [٩] .

وتعد رحلة (جون تايلر) للعراق عام ١٧٨٩م من الرحلات المهمة للبريطانيين في تلك المدة، وذلك لما حفلت الرحلة من مشاهدات وملاحظات حول مختلف مناطق العراق التي زارها، فقد زار منطقة (الاخيضر) ومدينة (النجف الاشرف) التي حط الرحال بها في ٦ كانون الثاني ١٧٩٠م ووصف (مرقد امير المؤمنين (عليه السلام)، حيث قال : **((ان المسجد مغشاة بالذهب وان هذا المكان هو محط تكريم المؤمنين وتقديسهم، ويضيف انه لو استثنينا القبة التي قد تكون ذات قيمة عالية، فان الموضع الذي اصبح مثوى خليفة الرسول (ص) لا يحسد عليه لأنه محاط بأرض جرداء قاحلة صخرية، تفتقر الى أنواع النباتات ولم نجد تلك الارجاء أيا من الحيوانات التي تعيش في الصحراء كالأرانب والطيور))** [١٠] .

غادر العراق في ٢٠ كانون الثاني ١٧٩٠م تاركا نصائح مفيدة للرحالة الذي يرمون المجيء للعراق، اذ قال**((من السهل ان تجد في البصرة رجالاً يقومون على خدمتك ويرافقوك في الرحلة ويتكلمون العثمانية والعربية**

وقليلاً من البرتغالية كما يلفظها اهل الهند، وبعظهم يتكلم اللغات الافرنجية (الفرنسية والإيطالية) وان وجود مثل هؤلاء مفيد جدا في السفر ويرافقك الدليل اذا دفعت له مبلغاً زهيداً لا يتعدى ستين روبية للرحلة كلها، واذا أراد السائح السفر من بغداد الى البصرة بطريق النهر فعليه ان يختار شهر كانون الثاني اذ يكون نهر دجلة والفرات أيضا في انحدار هادئ لان مياههما تتكون في ذلك الوقت من ذوبان الثلج وليس من سقوط الامطار، ويكون المناخ طيباً جدا في ذلك الموسم وباستطاعة الأوربي الذي يتعود على المناخ الحار جداً ان يتحمله، ويستغرق السفر من بغداد الى البصرة بالنهر خمسة عشر يوماً، ومن الأماكن الجديرة بالزيارة (طيسفون– طاق كسرى) فمن المتعة للسائح ان يزورها وهي بعيدة نسبياً عن بغداد، ان اسوارها تدل على عظمتها السابقة))، كما ينصح المسافرين بالتموين من خبز البصرة فهو على حد تعبيره اجود أنواع الخبز في البلاد [١١] .

تعد رحله (جاكسون) هي اخر الرحلات التي قام بها البريطانيون الى العراق في القرن الثامن عشر، وذلك في ١٨ حزيران عام ١٧٩٧م، حي زار البصرة والتي قال عنها **((انها واسعة جداً ومكتظة بالسكان ويمتد السوق فيها زهاء الميلين، وهو مزود تزويداً حسنا بالسلع فهو يحوي على الادوية من مختلف الانواع و بأسعار معتدلة رغم قيمتها الملموسة في اوروبا، كما ان للنقود قيمه اكثر مما لها في البلدان الاخرى، اما المصنوعات الاوروبية نادرة وغالية والناس يفضلون المصنوعات الانجليزية على ما سواها، فأقمشتنا وساعاتنا قد تباع بأكثر من ضعف الاسعار الذي تباع في انجلترا، اما سور المدينة فيبلغ طوله من ضفة النهر الى الصحراء الكبرى زهاء الاربعة اميال، اما طولة من الشمال الى الجنوب فيبلغ نحو ثلاثة اميال ويوجد داخل السور عدة اماكن خاليه لم تقم فيها اي ابنية ويظهر ان البعض منها تعرض للحريق اما المنازل فهي متشابهة بصفه عامة))** [١٢] .

كما زار الرحالة (جاكسون) بغداد في ١٤ تموز عام ١٧٩٧م، ولمس فيها الامتيازات التي تمتع بها البريطانيون عن غيرهم من الامم الاخرى، اذ ذكر قائلاً انه لم يذهب الى دائرة الجمارك لكي تفتش امتعته انما جاء الضابط بنفسه الى محل اقامته وفحص الامتعة هناك، كما لاحظ السائح ارتفاع الاسعار في بغداد وذكر ان الارمن يشكلون التجار الرئيسيون فيها، وان المعامل قليلة جداً وهي محدودة الانتاج ذات الاستعمال المباشر كالأغذية والملابس وغيرها، كما ذهب الى شمال العراق وبالتحديد مدينة كركوك وتجول فيها وذكر عنها الكثير في كتاباته التي تحدث عن العراق [١٣] .

المبحث الاول: البعثات البريطانية الاستكشافية.

مع بداية القرن التاسع عشر ازدادت اهمية العراق بالنسبة للبريطانيين نظراً للأحداث التي طرأت على المنطقة والتي تمثلت بالحملة الفرنسية على المصر عام ١٧٩٨ بقياده (نابليون بونابرت) والتي كان من اهم اهدافها دحر البريطانيين من خلال قطع طرق مواصلاتهم مع الهند، لذلك سعت بريطانيا الى تعزيز مركزها في العراق، اذ حصل اللورد (الجن) سفير بريطانيا في العاصمة اسطنبول على فرمان بقبول (هارفورد جونز) قنصلاً لبريطانيا

في بغداد وما حولها، مع تمتعه بالامتيازات، على سبيل المثال له حق التجول في العراق متى شاء وحيثما شاء مع الحاشية والاتباع، وبذلك اصبح الوالي كما كان السلطان العثماني في جانب بريطانيا [١٤] .

شهد بداية القرن التاسع عشر زياره العديد من البريطانيين الى العراق منهم لأغراض الترحال والوصول الى منطقة ما، ومنهم لغرض الاستكشاف ومن بين هؤلاء (بجنغهام) الذي جاء الى العراق عام ١٨١٦م، وقد امضى سنوات عديدة من عمره في الترحال في الشرق الاوسط، ومنها زار العراق وسوريا وتركيا وايران والهند ،وقد ذكر العراق بعد تجواله في بغداد ومن بين الملاحظات التي ذكرها عن المدينة، اذ قال: **((في سهل مستوى على الضفة الشمالية الشرقية لنهر دجله وهي في احد جوانبها تحاذ النهر وفي سور المدينة من المعالم ما يدل على تجديده وصيانته في اوقات مختلفة على ما هو الحال في الابنية الاسلامية، وافضل اقسامه القديمة اما الحديثة فاقل شانا من حيث البناء، وسور المدينة مبني كله من الطابوق وهذا الطابوق يختلف باختلاف الزمن الذي بنى فيه[١٥]))**، اما داخل مدينة بغداد ذكر عنها قائلاً: **((فلا تدل المباني عما اشتهرت به مدينة بغداد من عظمة وجلال وثروه بكونها اعظم العواصم فقسم كبير منها غير مبني لا سيما القسم الشمالي الشرقي، اما الاقسام المأهولة التي ترتفع فيها المباني قرب النهر حيث تكثر الاشجار ترى المدينة وكأنها قائمة وسط غابة على ما كانت عليه بابل))** [١٦].

وصل بغداد الرسام الانجليزي (كير بورتر) في تشرين الاول عام ١٨١٨ بعد ان امضى في بلاد فارس عدة سنين، وقد قارن بين الفارسيين والعراقيين اذ يقول: **((ان اهالي بغداد يختلفون تماما عن الفارسيين حيث يرتدي اهالي بلاد فارس الملابس البسيطة الضيقة وتمنطقون بخناجرهم في احزمتهم ويضعون الكلاو على رؤوسهم، في حين يرتدي البغداديون الملابس الفضفاضة والطويلة ويضعون العمائم على رؤوسهم المشدودة مفخفخة كما يلفون اعناقهم وصدورهم بالشالات الثمينة))**[١٧].

كما زار مدينه الحلة وذكر بعض الملاحظات عليهم حيث قال: **((ان السكان الحلة يفضلون اكل السمك وهو الطعام المفضل لديهم نظراً لتوفره بإعداد كبيره في الشط الذي يمر بالمدينة، وان سكان الحلة يفضلون الالوان الفاتحة في اختيارهم للملابس غير انهم يرتدون الملابس ذات الالوان الغامقة تعبيراً عن الحزن))**[١٨].

وشهدت المدة ١٨١٧-١٨٣١م خلال حكم داوود باشا للعراق بالعديد من المصادمات بين البريطانيين والوالي من خلال هيمنته السياسية الفعالة على ولاية بغداد واثره البالغ في الولايات الاخرى، اذ تعرض الوالي الى الامتيازات التي كانت تتمتع بها الشركة الهند الشرقية الانجليزية في بغداد فجردها من امتيازاتها واراد مساواتها مع التجار المحليين، لكن رد الشركة كان قوياً وعنيفا اذ شنت حرباً اقتصادية بقطعها المواصلات بين مدينتي بغداد والبصرة من خلال اسطولها النهري الذي كان يجوب انهار العراق آنذاك، لذلك تراجع داوود باشا عن موقفه واعاد للشركة امتيازاتها القديمة [١٩] .

على الرقم من تغيير موقف الوالي اتجاه البريطانيين الا ان العلاقة بينهما ظلت متوترة والتي انعكست على ندره مرور السياح خلال مده حكمه، لكن بعد عزله على اثر الحملة التي قادها والي حلب (علي باشا رضا اللاز) والتي ساعدته ظروف كثيره ادت الى انتصاره ومن اهمها مرض الطاعون الذي فتك بالجنود والسكان على حد سواء، وبذلك دخل علي باشا اللاز بغداد دون مقاومه تذكر [٢٠] .

جاء العديد من الرحالة البريطانيين للاطلاع على الاوضاع في العراق بعد الكارثة التي المت بهم ، ففي العام التالي لاجتياح وباء الطاعون بغداد جاء الرحالة (سكنر) واصفا حال الناس بقوله: **((حاله من البؤس والقنوط كانت تبدو على ملامح الناس الذين شاهدتهم لهول ما اصابهم من ذلك الوباء))** [٢١].

وقد اعطا السائح البريطاني (فريزر) الذي زار بغداد عام ١٨٣٤ وصفاً مريعاً للوضع الذي كانت عليه بغداد انذاك حيث قال: **((فقد انخفض عدد سكانها الى الخمسين الفا بعدما كانوا مئة وخمسون الف، وفي بعض الصناعات التي اشتهرت بها بغداد لم يبقى من اصحابها احد فاذا سالت عنها في الاسواق قيل لك، اه ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الان لان جميع من كانوا مختصين بصناعه قد ماتوا))** [٢٢].

اما اسوار بغداد فلم تكن كامله حسب تعبير الرحالة (فريزر) وابوابها مهدمة الا ان وضعها كان احسن من اسوار المدن الفارسية اما اسواقها كانت مهدمة كثيره ومبنيه بطراز بسيط وادارتها غير حسنة ولكن بسبب الازياء المختلفة كانت تبدو مبهجه جداً بالنسبة للأسواق الايرانية، كما تعج الاسواق بالمقاهي حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة ويلعبون مختلف الالعاب، وبهذا يمكن القول بان الحياة موجودة في المدينة آنذاك [٢٣].

تأزمت الاوضاع عام ١٨٤٩ بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية بسبب الحدود الفاصلة بينهما ووصلت الحال الى الاصطدام شبه المسلح، لذا قررت الحكومة البريطانية والروسية ان تتدخل لحل هذه الازمة بالطرق الدبلوماسية المألوفة من خلال تعيين لجنه دولية مكونة من الدول الاربعة وهم (العثمانية والفارسية والبريطانية والروسية) لتقوم بأجراء مسح عام للحدود وتعيين خط واضح المعالم لها، وكان من بين الاعضاء البريطانيين (ويليام لوفتس) المختص بطبقات الارض الذي تجول كثيراً في انحاء العراق بعد انتهاء مهمته، وقد وصف حالة الذعر التي انتابت سكان بغداد في ايار ١٨٤٩ بسبب ارتفاع المياه في دجلة الى اكثر من الحد المألوف في كل عام [٢٤].

اذ قدر الارتفاع بمقدار خمسة اقدام عن مستواه الاعتيادي وعلى حد قوله: : **((تجاوز مستواه المرتفع حتى الحد الذي وصلت اليه سنه ١٨٣١ حينما طغت المياه وفاضت فتدفقت في اطراف بغداد وازقتها فهدمت سبعة الاف بيت في ليلة واحده بينما كان الطاعون يعيش فساداً في ارجائها ويحصد النفوس حصداً من بين سكانها))**، وظلت البلاد المحيطة ببغداد مغمورة بالمياه لعده اميال من جميع الجهات وبذلك اصبحت بغداد خلال

مدة طويلة من الزمن جزيرة في وسط بحر داخلي مترامي الاطراف، ولم يستطع الناس الركوب الى ما وراء الاسوار الا بعد مرور شهر كامل [٢٥] ، كما زار الرحالة (ويليام لوفيتس) مدينة النجف والكوفة واطلع على المعالم الاثارية هناك، كما توقف في مدينه الكفل وقد اشار الى حادثه الطوفان وبين ان سفينه نوح قد رست في ارض النجف [٢٦].

المبحث الثاني: بعثات المسح البريطاني للأنهار في العراق:

تعد المدة من ١٨٣٠ الى ١٨٦٠ من اخطر الفترات في تاريخ العراق فمن خلال هذه المدة ظهرت بوادر الاتجاه البريطاني نحو دجله والفرات في مشروع خطير اقدمت على دراسته شركه الهند الشرقية الانجليزية في اواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر اذ ارادت ايجاد طريق للمواصلات بين الشرق والغرب يمر اما بمصر او في العراق ليكون متمما للطريق القديم المار براس الرجاء الصالح [٢٧].

لذلك ارسلت العديد من البعثات للقيام بأعمال المسح والتخطيط جمعت خلالها معلومات تفصيلية عن مجاري دجله والفرات وعن شؤون البلاد الحيوية الاخرى والتي ادت الى توطيد النفوذ البريطاني في المنطقة، واستطاع الضابط البريطاني (اورمبسي) ومن تلقاء نفسه في المدة ١٨٢٦-١٨٣٠ بمغامرة استطلاعية بوادي الفرات وفي سبيل هذه المهمة هجره بحريه الهند حتى ان اسمه شطب من قائمه الموظفين في البحرية، استطاع خلال مهمته الاستطلاعية تأليف كتاب بعنوان (ذكريات عن وادي الرافدين) [٢٨] .

كما قامت مجموعه اخرى برئاسة (جيمس تايلر) برحلة استطلاعية اخرى في نهر الفرات ولكنه قتل على ايدي القبائل العربية القاطنة في تلك المناطق والتي عبروا من خلالها عن معارضتهم وعدم ثقتهم بأي مشروع اجنبي ومقاومتهم له بشتى الوسائل المتاحة لهم [٢٩] .

لكن اهم هذه البعثات واخترها في نفس الوقت هي بعث (جسني الاولى) ١٨٣٠-١٨٣١ وهو ضابط في القوات البريطانية وكان قدومه الى المنطقة عام ١٨٢٩ بقصد الاشتراك في الحرب الروسية العثمانية الى جانب الدولة العثمانية، الا انه وصل عند انتهاء الحرب لكن المسؤولين البريطانيين طلبوا منه اجراء مسح لنهر الفرات في العراق وامكانات استخدام البواخر فيه، وكتابه تقرير عن جوانب القوه والضعف في العراق، كذلك طلبت منه حكومة الهند ان يقارن بين طريق الفرات وطريق البحر الاحمر، فسافر اولاً الى مصر وهناك اكتشف قيمة تنفيذ مشروع توصيل البحرين الاحمر والابيض المتوسط، الا ان (محمد علي باشا) كان يخشى من نتائج جعل مصر معبراً بين الشرق والغرب، كما ان نفقات المشروع كانت باهظة جداً فوضع (جسمي) المشروع جانبا ورحل الى الشمال الى الشام لينفذ الشطر الثاني من مهمته، التي تتلخص في:

١. دراسة الطرق بين الاسكندرية واللاذقية وانطاكيا وحلب.
٢. دراسة الطرق بين حلب والبصرة عبر الصحراء.
٣. دراسة الطرق بين اسيا وبغداد.

٤. طبيعة الانهار واساليب النقل فيها وامكانات استخدام البواخر.
٥. التجارة ومستقبلها في تلك الجهات وخاصة امكانات التوسع الاقتصادي البريطاني.
٦. العمل على معرفة كل الظروف السياسية والاقتصادية في تلك الجهات .[٣٠]

بعد ان انهى (جسني) مهمته التي امتدت من حزيران ١٨٣٠ وحتى حزيران ١٨٣١ بعث بالتقرير الى لندن التي اشار فيها بوضوح الى ان نهر الفرات لا يصلح للملاحة البخارية لعده اسباب اهمها:

١. سرعه التيار في النهر في بعض الاماكن تهدد البواخر بالغرق.
٢. وجود مستنقعات في الجنوب تجعل من العسير على الباخرة تحديد المجرى الرئيسي للنهر الامر الذي يعرضها للاصطدام بقاع النهر الرملي وتغوص فيه.
٣. وجود عشائر عربية قوية تسيطر على مجرى النهر وتستطيع ان تهاجم البواخر المارة في النهر وهي عشائر لا سلطه للحكومة عليها في الغالب[٣١] .

لكن البعثة في المقابل اوضحت قيمة هذه البلاد التجارية من حيث قدرتها على الشراء المواد التجارية البريطانية الهندية كالسكر والشاي والمنسوجات القطنية، وكان رأي البعثة ان الانكليز لو تاجروا مع هذه البلاد مباشرة تتضاعف قدرتها على الشراء ، لان التجار العراقيين يبتاعون البضائع بعد ان تمر بالكثير من الوسطاء فتتضاعف اسعارها، حتى ان البعثة لاحظت ان قطعه القماش التي قيمتها لا تزيد عن ١٣ سنت كانت تباع في هذه الاسواق باثنين وثلاثين سنتاً، بينما لو استوردتها شركه انكليزية لاستطاعت ان تنزل هذا السعر الى النصف وتتضاعف يذلك قدرة السوق على الشراء، ومن الملاحظات المهمة للبعثة هو خطر التجارة الروسية على التجارة الانكليزية في اسواق بلاد فارس والعراق، لان اسعار بضاعتها كانت اقل بكثير من اسعار البضاعة الانكليزية[٣٢].

لكن يبدو ان (جسني) وبتأثير من الساسة البريطانيين قد عدل عن اراءه السابقة بخصوص صلاحية نهر الفرات، ويعود هذا التحول الى التوسع المصري في الشام فقد استطاعت القوات المصرية خلال عامين ١٨٣١ – ١٨٣٣م ان تسيطر على الشام وان تنزل الهزيمة بالجيوش العثمانية، وبذلك اصبح الطريقين القصيرين عبر الشرق الادنى الى الشرق الاقصى في قبضة حكومة واحده، لان مفاتيح طريق العراق هي الشام [٣٣] .

كما ان العراق نفسه كان مقبلا على الحركة المصرية فقد انضم (يحيى الجليلي) والي الموصل و(صفوق الفارس الجربا) شيخ عشائر شمر الجربا الى هذه الحركة، كما قامت في بغداد نفسها تمرداً كبير ضد الوالي العثماني على رضا اللاز عام ١٨٣٢م، ويبدو ان محمد علي باشا كان متفاهما مع المصريين على توجيه ضربة مشتركة للعثمانيين في الشام والعراق في ان واحد [٣٤] .

ونتيجة لهذه الظروف المستجدة التي تبشر بظهور دولة كبرى ناشئة قد تقف حجر عثره في وجه الاهداف الاستعمارية البريطانية، جندت بريطانيا رجالها لدراسة الموقف من زاويه خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق

الاوسط وخاصه عبر العراق وفارس وتحديد الطريق الممكن استخدامه في حال الاصطدام بروسيا او مصر واقترح (ستراتفورد) سفير بريطانيا في الاستبانة على حكومته اتخاذ الاجراءات الاتية [٣٥] :

١. اضعاف جانب مصر بسحب الفنيين الانجليز العاملين فيها.
٢. القيام بمجهودات دبلوماسية في كل من طهران وبغداد لمقاومه المصريين.
٣. الحصول على حق استخدام الفرات للملاحة البخارية البريطانية.

لذلك عملت بريطانيا ومن خلال سفيرها في الاستانة على اصدار فرمان بتسهيل الملاحة البخارية في نهر الفرات لربط الشرق بالغرب، وقد تردد الباب العالي في البداية على اصدار مثل هذا الفرمان، معللا السبب ان لا سيطر له على العشائر التي ستمر بها البعثة وان لا يستطيع لهذا السبب ان يتحمل مسؤولية سلامتها، وانه مستعد لإصدار الفرمان اذا ما تحملت بريطانيا مسؤولية الدفاع عن الباخرتين، وقبل الانكليز ذلك بشرط ان تكون الباخرتين مسلحتين [٣٦].

والواقع ان الباب العالي وقع بين الضغوط البريطانية من جهة والروسية من جهة اخرى وكانت روسيا تعد ان اصدار مثل هذا الفرمان سيلقي العراق غنيمة في يد البريطانيين ، ولتهم سيجعلون منه قاعده لمقاومة التوسع الروسي في جنوب غرب اسيا، لكن الضغط البريطاني كان شديد على الباب العالي الذي كان يخشى ان تصبح مصر هي المعبر بين الشرق والغرب المفضل لدى البريطانيين، اضافة الى ان العثمانيين كانوا بحاجة ماسة لمسانده بريطانيا في صراعهم ضد مصر، لذلك اصدر الباب العالي الفرمان في ٢٩ اب ١٨٣٤م ، اذ يسمح الفرمان بان يستخدم البريطانيين باخرتين في نهر الفرات بقصد تسهيل التجارة بين الشرق والغرب [٣٧] .

وخصصت الحكومة البريطانية لهذه البعثة التي سمتها الفرات مبلغا من المال قدره ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني كما بنيت لها باخرتين خصيصا لها هما (دجله والفرات) بقياده الكابتن (جسني) ، والملاحظ على هذا الفرمان انه حدد نهر الفرات فقط مجالاً لملاحه هاتين الباخرتين وانه موجه الى الحكومة البريطانية وليس الى فرد او شركة بعينها، والفرمان لا يشير الى المعاهدات السابقة المعقودة بين الدولتين، وقد ارسلت فرمانات مشابهه لهذا الفرمان الى الولاة المعنيين بهذا الموضوع في بغداد وعلى طول نهر الفرات [٣٨] .

غادرت البعث ميناء ليفربول في شباط عام ١٨٣٥ ووصلت الى السويدية في الشام في ١٤ نيسان لكن السلطات المصرية اعترضت على هذه البعثة بحجة انها لم تخطر بفرمان من السلطان، وقد امتنع الباب العالي ان يصدر الفرمان على اعتبار ان الفرمان ممنوح للبعثة وموجه الى كل باشوات الدولة بلا استثناء والواقع ان محمد علي باشا كان يخشى من ان يتفوق طريق الفرات على طريق البحر الاحمر، الامر الذي يصيب خزينة مصر بخساره كبيره، كما كان يخشى على الاراضي الواقعة تحت حكمه في الشام من استخدام الانكليز لها كمعبر بين الساحل السوري والعراقي [٣٩] .

لكن محمد علي باشا وتحت الضغوط البريطانية اضطر الى التراجع عن موقفه ووافق على مرور البعثة عبر الشام كما تخلى عن الاراضي الواقعة على الضفة الشرقية للفرات منعاً للاصطدام بالبعثة، وقد بدأت رحله الباخرتين (دجله والفرات) في نيسان عام ١٨٣٦ وبعد شهر قضى على الباخرة (دجله) في اعصار عاصف، فواصلت (الفرات) المهمة لكن عند دخولها الاراضي العراقية قوبلت بصوره عنيفة، حيث تعرضت الى هجوم من قبل عشيرة الخزاعل في الحلة، كما وقعت الباخرة بفخ نصبه القنصل الفرنسي في سوق الشيوخ وذلك لإحباط مساع البعثة وذلك باستعمال الحواجز المتخذة من جذوع النخيل [٤٠] .

والواقع ان القنصل الفرنسي في العراق (فونتانييه) قد حاول مقاومة المشروع البريطاني بأثارة العرب ضد البعثة وتحذير العراقيين من الامتيازات التجارية التي استأثر بها البريطانيين ومن النشاط البروتستانت البريطاني، لكن مجهوداته لم تكلل بالنجاح لان النفوذ الفرنسي في العراق كان ضعيفاً، كما ان الحكومة الفرنسية ركزت مجهودها للحصول على مركز ممتاز لها في مصر دون العراق على اعتبار ان مستقبل خطوط المواصلات العالمية سيمر من خلال مصر [٤١] .

وقد صدرت الاوامر الى (جسني) وهو في القرنة بان يصعد الى نهر دجلة، وفعلا صعدت الباخرة الى نهر دجله حتى بغداد ثم تجاوزتها ثم هبطت الى القرنة، وبصعود الباخرة (الفرات) فأنها قد خالفت الفرمان الممنوح لها الذي حدد عملها في نهر الفرات فقط، بعد ذلك سافر (جسني) الى لندن للقاء المسؤولين هناك، فخلفه (هنري لينج) في قياده الباخرة واستكمال الدراسات في انهار العراق وما يتصل بها من انهاراً اخرى مثل نهر الكارون [٤٢].

وبعد انتهاء مهمة البعثة في عام ١٨٣٧ بعثت بتقريرها الذي اكد فيه ان نهر الفرات صالح للملاحة البخارية، ويمكن ربط الشرق والغرب لكن تحت حكومة مستنيره تستطيع ان تقوم بمشروعات متعددة على طول النهر لازالة العقبات الطبيعية التي تحول دون استخدام البواخر، ومن ناحيه اخرى قدمت البعثة الدراسات الاجتماعية اقتصادية لسكان العراق وفتحت امام دوائر الهند مجالات تجارية مربحة لا في العراق فقط بل في فارس عن طريق نهر الكارون وفروعه، وظهرت اهمية هذه الدراسات خلال حملتي القوات البريطانية على فارس عام ١٨٣٧–١٨٣٨ وعام ١٨٥٧ – ١٨٥٨م [٤٣] .

وصف التقرير لحاله النهرين دجلة والفرات بشكل مسهب مع ملاحظات جغرافية وتاريخية عنهما وعن البلدان التي يمران بها والمواقع المجاورة لهما، ومع التقرير مجموعة من الخرائط مؤلفة من (١٤) خارطة نظمت في اطلس مستقل، تبين وضع الفرات من الشمال الى الجنوب وكذلك نهر دجلة[٤٤] .

على الرغم من اخفاق الرحلة في تحقيق ما ترمي اليه، لكنها نجحت في نواحي اخرى اذ كانت فاتحة لمشاريع بريطانية مهمه، فقد قام (لينج) الذي خلف (جسني) في قياده البعثة عام ١٨٤٠ مع بعض افراد عائلته

بتأليف بيت تجاري في بغداد وقد اتسعت اعماله حتى انهم قاموا عام ١٨٦٠م بأنشاء (شركة الملاحة البخارية في دجله والفرات) والتي هيمنت على النقل النهري ما بين بغداد والخليج الى ما بعد الحرب العالمية الاولى [٤٥] .

ويمكن القول ان احد اسباب عدم نجاح البعثة، يعود الى رفض امير المنتفق انذاك بالتعاون معها مهددا اياها بان مرور اي باخرة انكليزية في مناطق اللواء سوف يعرضها للحرق او التدمير ولا يهمه ان كان ذلك يغضب الوالي في العراق او الباب العالي في اسطنبول، وكما هو معلوم فان اماره المنتفق في ذلك الوقت كانت من اقوى الامارات في جنوب العراق وكثيراً ما سببت اضطرابات والمشاكل للدولة العثمانية التي لم تستطع كبح جماحها الا في عهد مدحت باشا والي العراق وذلك بإنشاء متصرفية الناصرية وجعل الشيخ ناصر السعدون متصرفا تابعاً للحكومة المركزية في بغداد [٤٦] .

على ان التحريات والاستكشافات لم تنتهي بما تم على يد (جسني) وخلفه (لينج)، فلقد قام بعدهما (فيليكس جونز) القائد في بحرية في الهند بأعمال مهمة في هذا السبيل خلال المدة ١٨٤٧– ١٨٥٣م ، اهتمت بتضاريس بغداد وضواحيها واثار بابل ونينوى، وقد وضع خريطة لبغداد باللغة الانكليزية [٤٧] .

وابرز (كولنكود) احد مساعدي (جونز) عن حراجه الظروف التي احاطت بهم حيث قال : **((انني وحدي انجزت تخطيط بغداد في ظروف جدا عصيبة، اذ كنت مضطرا الى العمل خفيه وقد حدث احيانا اني قمت بتسجيل المواقع والمحلات على قميص الابيض، مغتنماً الفرصة اذا ما استطعت الحصول حينئذ على قلم الرصاص، وكثيرا ما اوشك امري ان يفتضح حتى انني توسلت بشده انواع الحيل لدفع الريبة))** [٤٨].

استمرت العمليات في مسح العراق دون ان تدري السلطات العثمانية بهذا النشاط، ولكن بمرور الوقت بدأت السلطات تشك في حقيقة اهداف هذه العمليات لذلك اعترض العثمانيون على نزول فرقة من المساحين البريطانيين الى الساحل الاحسائي لانهم كانوا يعملون دون علم المسؤولين في تلك المنطقة [٤٩] .

المبحث الثالث: البعثات البريطانية الاثارية للعراق.

تسابق الانكليز والفرنسيون في التنقيب والكشف عن الاثار العراقية تسابقا لا يقل اهميه عن تنافسهم في الميادين الاخرى، وغالبا ما اجتمعت صفه الدبلوماسية بشخص المنقب نفسة وقد ظلت هذه الصفة هي الغالبة الى سبعينيات القرن التاسع عشر حيث بدأت عمليات التنقيب الاثرية تصبح اكثر مهنية وعلمية من السابق ويعد (كلوديوس ريج) المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٠٨–١٨٢١ من اوائل الدبلوماسيين الاجانب الذين اهتموا بالمواقع الاثرية في العراق ، اذ عندما تولى مهام منصبه في بغداد اتيحت له الفرصة لدراسة الاثار في المنطقة، واستطاع ان يجمع لنفسه مجموعه من المخطوطات والنقود المعدنية والقطع الفنية وكِسر الاثار [٥٠] .

وتعد مدينة بابل من اول المواقع التي نقب فيها (ريج) عام ١٨١١م ، حيث نقب في برج بابل الشهير ولاحظ ان نصفه الاول مصنوع بمتانة خارقه، اذ يعتقد ان تزجج الطابوق يرجع الى (صاعقة هبطت من السماء) ويميل الى ان (النار سقطت على منتصف البرج فشقته حتى الاساس) [٥١] .

ذهب رج بعد ذلك الى الشطر الشرقي منها على مسافه ميلين عن الحلة وهي تتألف من تلين كبيرين وتلول اخرى صغيره، وقسم هذه الاخربة على الوجه الاتي[٥٢]:

١. تل جمجمة ويقوم عليه مرقد عمران بن علي ويسمى تل عمران.
٢. الوادي الكائن شرقي (القصر) وفيه اخربة بناية وجد فيها في نهايتها مسرب ارضي مفروش بطابوق ذي حجم كبير واستخدمت في رصفة مونة ماسكة، وقرب هذا الموقع قام (ريج) بالكشف عن التمثال الشهير المصنوع من البازلت الذي يمثل اسداً يصرع انساناً.
٣. اخربة شيدت بطابوق لطيف طول الواحدة ٣٨ قدماً، ولها جدران عديدة والسقوف سمك الواحد منه ١٨ قدم، والاهالي يطلقون عليه (القصر) او (الحصن)، وفي احد جدرانها ثلاثة اصداع والتي ادت الى ان يصبح عاليها سافلها في يوم من الايام .

وفي جنوب العراق عند قبر (العزير) الذي يقع بين البصرة والعمارة على مقربة من ملتقى الرافدين، اعطى (ريج) وصف دقيق لهذا المرقد حيث قال: **((هو بناء يشبه جامعاً يقوم على لسان بارز في النهر، وقد نشاهد هذا اللسان من دورة تدورها دجلة هناك حيث تلتوي كل الالتواء، وقد التف حول المكان عدد من الاعراب يسكنون في قرية بيوتها من القصب، وموقع القبر في الجانب الايمن من النهر محاط بجدار وحصون والقبة مغشاة باجر مطلي بدهان الخزف، والقبر مستطيل الشكل منحرف السطح معمول من الخشب ومسجى بمخمل اخضر طوله ١٨ قدم وعرضه ٤ اقدام وارتفاعه ٦ اقدام وبينه وبين كل طرف من اطراف الغرفة ٣ اقدام))**[٥٣] .

وفي الشمال العراق سافر (ريج) للتنقيب في موقع نينوى القديم وذلك في تشرين الثاني ١٨٢٠ وفي تل (قوينجق) ، اذ لاحظ انه غير منتظم الشكل باستثناء جهته الغربية وقسم من واجهته الشرقية في حين ان جهات الاخرى شديده الانحدار وقمته منبسطة تقريبا، يبلغ ارتفاع العمود ٤٣ قدما وليس في قمه التل من الدلائل ما يشير الى انه اعلى مما عليه في الوقت الحاضر ، والحقيقة ان (ريج) لم يعثر في شمال العراق ما هو ثمين وانما استطاع عن طريق الشراء الحصول على بعض القطع الاثرية، منها مسنداً للراس كان في وقت ما على فراش احد الأشوريين وهو الان في المتحف البريطاني، وبعد وفاته باعت زوجته مجموعته التي ضمت العديد من الاثار البابلية والاشورية بمبلغ ٧٠٠٠ باوند وأهم هذه الاثار ، **(٤ اختام اسطوانية من الطين المفخور نقشت بكتابات مسمارية، واثنان وثلاثون لوحاً طينياً منقوشاً بكتابات مماثله ، ١٣ اجرة مختومة، لوح تذكاري من الحجر**

الاسود عليه كتابات مسمارية، وحجراً لتثبيت الحدود بحجم كبير منقوش بالكتابة)، ان هذه الاثار تمتاز باهمية خاصة انها اول الاثار التي تم نقلها الى اوروبا من بلاد ما بين النهرين وقد فتحت فصلاً في عمليات التنقيب الاثارية في العراق [٥٤] .

كما يعد (بكنغهام) من الانكليز الذين اهتموا بأثار العراق فمن خلال رحلته عام ١٨١٦ زار خرائب نينوى ووجد ان العشب العالي جعلها تبدو في كثير من الامكنة تشبه التلال المختلفة عن الخنادق والتحصينات التي تميز بها المعسكرات الرومانية القديمة، وتمتد بين هذه التلال ارض سهلة مستوية تتناثر قطع الفخار في جنباتها كما نشاهد انقاض الابنية المتهدمة حواليها [٥٥] .

ويرى اسوار بابل وهي احدث في البناء لم يبقى منها اي اثر قائم فان اسوار نينوى قد زالت كلها تماماً، ويضيف لقد تطلعنا من المرتفع الذي صعدنا فوقه الى مسافات شاسعة من حولنا فلم نرى اي رسم أي اثر كبير عدا تلال واكوام صغيرة من الانقاض كانت تتنافر بنطاق واسع فوق ارض السهل وهي تكفي لتبرهن على ان الموقع الاصلي للمدينة كان يحتل مساحه شاسعة من الأرض [٥٦] .

وفي عام ١٨٣٠ جاء الى العراق الرحالة الانجليزي المعروف (جيمس ريموند ولستد) بقصد السياحة والتنقيب عن الاثار وبدأ رحلته من البصرة في قارب بنهر الفرات ومنها بطريق البر الى بغداد وقد الف كتابا بعنوان (رحلات الى مدينة الخلفاء)، وعند نزوله الى الحلة وعلى بعد عشره اميال منها بدأ تنقيبات، حيث كانت التربة تتألف من الطين الناعم وعلى عمق ثلاثة او اربعة اقدام عثر على بعض التوابيت المعمولة من الطين المجفف، وقد فتح احد هذه التوابيت فلم يجد سوى عظام الاطراف والجمجمة ولا اشك انها تعود الى العصر البابلي القديم [٥٧].

ذهب (ولستد) من الحلة الى بغداد من الناحية الشمالية وبعد اجتيازه بستاناً كثيفاً من النخيل وصل الى ما يعرف بقبر زبيدة ويقول في هذا: **((لقد طفرت مخيلتي الوف الذكريات الفرحة عندما تطلعت الى ذلك البناء الشامخ البسيط الذي يضم رفاه زوجه هارون الرشيد بطل قصص الف ليله وليله فهو يقوم فوق منحدر داخل مقبرة واسعة خارج اسوار المدينة مباشره، ويؤلف مجرد بناء مثمن الزوايا يبلغ قطره ٣٠ قدما معززا ببرج مستدق الطرف، وهذا البرج عبارة عن مخروط حاد مزين من الخارج بتقسيمات محدبة تتماشى مع عقود مجوفه من الداخل))** [٥٨] .

ويعد (رولنسون) من اوائل المنقبين البريطانيين الذين كان لهم اكتشافات مهمة ادت الى معرفه الكثير من اسرار الامبراطوريات التي حكمت في العراق ومن بين إنجازاته، انه ساهم ولو عن طريق غير المباشر في معرفه رموز اللغة المسمارية، فمن خلال احدى التنقيبات التي امتدت من عام ١٨٣٥ – ١٨٤٤ م وقد توصل في دراسة

جداول لغوية مدونة على الواح الطين المكتشفة من مكتبه اشور بانيبال في نينوى الى انها جداول ثنائية اللغة، ادرجت فيها كلمات مقطعية بابلية وتقابلها مرادفات باللغة الثانية المجهولة، ليتضح بعد ذلك انها اللغة السومرية[٥٩].

على ان اهم التنقيبات الاثارية التي قام بها الانجليز خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر تحققت على يد (لايارد) الذي جاء الى العراق عام ١٨٤٠ خلال مدة اقامته القصيرة في الموصل اطلع على اثار المدينة القديمة نينوى حيث زار قلعة الشرقاط وغادر العراق بعد ذلك، لكنه عام ١٨٤٢ التقى بالسفير البريطاني في الاستانة الذي كان مولعا بعلم الاثار وقد اطلع على كتابات بهذا الخصوص واستمع الى احاديث (لايارد) وعن التنقيبات التي قام بها، فقرر المساهمة في بعض الاستكشافات الاخرى ووضع تحت تصرفه مبلغا من المال مع منحه راتباً سنويا قدره ٢٠٠ باون، كما واستطاع السفير الحصول على فرمان يسمح (لايارد) بالتنقيب في الموصل[٦٠].

وفي شباط عام ١٨٤٥ كان له اعظم الاكتشافات الاثارية فقد شاهد نتوء بارز في الارض يمثل راس انسان هائل الحجم كانت تمثالاً وليس نحتاً بارزاً وكان يبدو بوضوح انه يمثل الجزء الاعلى من الشخص لا تزال بقيتة مطمورة تحت الارض وقد اعترى الفزع الجميع من جراء ظهور هذا الراس الهائل الحجم بشكل مفاجئ من احشاء الارض وقد وصل بهم الخيال اوج درجاته وظنوا ان هذا التمثال يمثل الادب الاسطوري للمدينة القديمة، انه نمرود نفسه وقد ظهر تحت نور الشمس، لقد كان يوماً مشهوداً من ايام (لايارد) وجرى الاحتفال بهذه المناسبة على اكمل وجه [٦١] .

ومن اكتشافاته المهمة العثور على اسدين مجنحين برؤوس ادميه يبلغ ارتفاع كل منهما ١٢ قدم وقد لاحظ (لايارد) بان شيئا غريبا يميز هذين التمثالين وهو وجود خمس ارجل لكل منهما بدلا من أربعة، ولكنه ادرك في الحال بان سبب ذلك يعود الى ان النحات صمم التمثال بحيث ان المشاهد يتمكن من الحصول على نظره صحيحه سواء نظر اليه من الامام او من الجانب [٦٢].

الخاتمة:

ان للبعثات البريطانية التي أرسلت في العصر الحديث ومنها في النصف الأول من القرن التاسع عشر دور كبير في دراسة أحوال العراق، فقد استطاعت هذه البعثات الاستكشافية والاثارية والتجارية من مسح اغلب مناطق العراق من الشمال الى الجنوب.

دونت اهم الملاحظات عن العراق وشعبه، مبينه احواله الاقتصادية والاجتماعية وكتبت عن السكان القاطنين وطبائعهم، كما رسمت البعثات الكثير من الخرائط التي تم استخدامها عندما احتل العراق من قبل القوات البريطانية في الحرب العالمية الأولى، فقد استطاعت القوات البريطانية اكتساح القوات العثمانية بسبب تلك الخرائط الدقيقة للمدن العراقية أماكن الجيوش والثكنات العسكرية والعشائر المهمة.

ان للبعثات الاثارية البريطانية دور إيجابي من خلال اكتشافهم لاهم الاثار العراقية واللغة السومرية، موضحين ان للأثار العراقية وحضارة وادي الرافدين الأهمية الكبيرة من بين الحضارات الأخرى، لكن بالوقت نفسه تعد التنقيبات الاثارية البريطانية وغيرها من التنقيبات الاوربية، سلبية لان عملت على تهريب اغلب الاثار المكتشفة الى اوطانهم وتعرض في متاحفهم، وهذا ما حصل مع التنقيبات البريطانية في العراق.

اذن تبين من خلال ما دون من معلومات عن البعثات، انها جاءت لخدمة بلدهم الام بريطانية وتخدم مصالحهم على حساب مصلحة العراق، واستطاعوا ان يستفادوا من هذه البعثات بشكل كبير وتحصلوا على معلومات قيمة عن العراق وأهله.

الهوامش:

[١] . بشار فتحي العكيدي، صراع النفوذ البريطاني– الأمريكي في العراق ١٩٣٩–١٩٨٥م دراسة تاريخية سياسية، ط١، (عمان: دار غيداء، ٢٠١١)، ص١٩–٢٠.

[٢] . زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م (بغداد: العاني، ١٩٨٦م)، ص ٣٥.

[٣] . المصدر نفسه ، ص ٣٦.

[٤] . فواز مطر نصيف، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق، ١٨٦٩–١٩١٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد: كلية الاداب، ١٩٨٩م)، ص ٣٠.

[٥] . زكي صالح ، المصدر السابق، ص ٤٣.

[٦] . حسين محمد القهواتي، العراق بين احتلالين العثماني الأول والثاني ١٥٣٤–١٨٢٦م (جامعة بغداد: كلية الاداب، ١٩٧٥م)، ص١٤٦.

[٧] . زكي صالح، المصدر السابق، ص ٤٤.

[٨] . عبد الأمير محمد امين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، (بغداد: اسعد، ١٩٦٦م)، ص٦٥.

[٩] . يعقوب سركيس، مباحث عراقية، (بغداد: شركة التجارة للطباعة المحدودة، ١٩٤٨م)، ص٦٩.

[١٠] . مجموعة مؤلفين، رحالة اوربيون زاروا العراق، (بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٧م)، ص٨٢.

[١١] . رحلة تايلر الى العراق (سنة ١٧٨٩–١٧٩٠)، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد ١١، العدد ١، ١٩٨٢م، ص٤٠.

١٢ . جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧م، ترجمة خالد فاروق عمر، (بيروت: دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠م)، ص ٣٦.

١٣ . مهدي صالح سعيد، كركوك في اواخر العهد العثماني ١٨٦٩–١٩١٤م دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والثقافة ، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: كلية الاداب، ٢٠٠٥)، ص ٤٧.

[١٤] . زكي صالح، مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٦م)، ص ٢٥.

[١٥] .مجموعة مؤلفين، بغداد بأقلام رحالة، ترجمة محمد علي حلاوي، (بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٧)، ص ١٠٣.

[١٦] . المصدر نفسه، ص ١٠٥.

[١٧] . مجموعة مؤلفين، بغداد في القرن التاسع عشر كما وصفها الرحالة الاجانب، ترجمة سعاد هادي العامري، (بيروت:الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢م)، ص٩٣.

١٨ . علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر ١٨٦٩-١٩١٣م،(بغداد:الحكمة،٢٠٠٣)،ص٢٣٩.

١٩ . سيار كوكب جميل، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦م، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩١م)، ص٣٥٦.

٢٠ . المصدر نفسه، ص ٣٥٧.

٢١ . علي هادي المهداوي، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

٢٢ . علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بغداد:دار ومكتبة دجلة والفرات، ٢٠٠٩م)، ج٢،ص٩٢.

٢٣ . مجموعة مؤلفين، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة، ترجمة سعاد هادي، (غداد: دار المعرفة، ١٩٥٤)، ص٦٥.

٢٤ . جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، (بيروت: دار الكتب، ١٩٧١م) ، ج١، ص ٣١٩.

٢٥ . المصدر نفسه، ص٣٢٠.

٢٦ . حسن عيسى الحكيم، الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي، (بيروت: دار المعارف للمطبوعات،٢٠٠٩م)، ص١٧٥.

٢٧ . زكي صالح، مجمل تاريخ العراق....، ص ٤٥.

٢٨ . زكي صالح، بريطانيا والعراق ...، ص١٥٣.

٢٩ . عدنان حسن محبوبه، مقومة العراقيين للنفوذ الاجنبي، 1750-1831م، (النجف الاشرف: التميمي للنشر،٢٠١١م)، ص١٥٥.

[٣٠] . عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٨م)، ص٢٤٣.

[٣١] . عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠-١٩١٤م، (القاهرة: مكتبة انكلو المصرية، ١٩٦٨م)، ص٣٨؛ محمود النائب، السكك الحديدية في العراق، (بغداد: العارف، ١٩٥٨م)، ص٣٠.

٣٢ . عبد الفتاح ابراهيم، على طريق الهند، ط٣، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، د.ت)، ص ٧٥.

٣٣ . عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية ...، ص٣٨

٣٤ . المصدر نفسه، ص ٣٩.

٣٥ . عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية ...، ص ٢٤٤.

٣٦ . المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

٣٧ . المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

٣٨ . المصدر نفسه، ص ٤٥.

٣٩ . عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث...، ص ٢٥٢.

٤٠ . ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط٣، (بغداد: البرهان، ١٩٦٢م)، ص٢٩٧.

[٤١] . عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥٦٦-١٩٢٢م ،(بيروت:دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت)، ص ٢٩٨.

[٤٢] . عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية ...، ص٤٨.

٤٣ . عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث...، ص٢٦٣.

[٤٤] . احمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣م)، ج٢، ص ٢٧٤.

[٤٥] . زكي صالح، مجمل تاريخ العراق ...، ص٤٨.

[٤٦] . حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمية ١٥٤٦-١٩١٨م، (عمان: وائل للنشر،١٩٩٩م)،ص ١٨٧.

٤٧ . ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة مصطفى جواد وفؤاد جميل، (بغداد: مطبعة شفيق، ١٩٦٧م)، ج٢، ص١٦٥.

٤٨ . تقي الدباغ واخرون، العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣م)، ص٣٢٤.

٤٩ . عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث...، ص٣٢٤.

٥٠ . صالح خضر محمد ، الدبلوماسيين البريطانيين في العراق ١٨٣٠-١٩١٤، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٥م)، ص٥٨.

٥١ . وليس بدج، رحلات الى العراق، ترجمة فواد جميل، (بغداد: دار الزمان، ١٩٦٦م)، ص ١٤٣.

٥٢ . المصدر نفسه، ص ١٧٨.

٥٣ . يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (بغداد: الفرات، ١٩٢٤م)، ص ٢٥.

٥٤ . روبستن بايك، قصة الاثار الاشورية، ترجمة يوسف عبد القادر، (بغداد: اسد، ١٩٧٢م)،ص٣٩؛ كلوديوس ريج، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠م ، ترجمة بهاء الدين نوري، (بغداد: السكك الحديدية، ١٩٥١م)، ص٢٤١.

٥٥ . جيمس بكنغام، رحلتي الى العراق سنة ١٨٦١م، ترجمة سليم طه التكريتي،(بغداد: اسعد، ١٩٨٦م)، ص ٨٥.

٥٦ . المصدر نفسه، ص ٩٢.

٥٧ . جيمس ريموند ولستد، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داوود باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد: ثويني، ١٩٨٤م)، ص ١٢.

٥٨ . المصدر نفسه، ص ٤٢.

٥٩ . نائل حنون، حقيقة السومريين، (دمشق: دار الزمان، ٢٠٠٧)، ص٢٢.

٦٠ . روبستين بايك، المصدر السابق، ص٥١.

٦١ . المصدر نفسه، ص٦١.

٦٢ . المصدر نفسه، ص ٦٧.

قائمة المصادر

أولا : الرسائل الجامعية.

١. فواز مطر نصيف، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق، ١٨٦٩-١٩١٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد: كلية الاداب، ١٩٨٩م).

٢. مهدي صالح سعيد، كركوك في اواخر العهد العثماني ١٨٦٩-١٩١٤م دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والثقافة ، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: كلية الاداب، ٢٠٠٥).

ثانياً: الكتب العربية والمعربة.

١. احمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣م).
٢. بشار فتحي العكيدي، صراع النفوذ البريطاني- الأمريكي في العراق ١٩٣٩-١٩٨٥م دراسة تاريخية سياسية، ط١، (عمان: دار غيداء، ٢٠١١)، ص١٩-٢٠.
٣. تقي الدباغ واخرون، العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣م).
٤. جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧م، ترجمة خالد فاروق عمر، (بيروت: دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠م).
٥. جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، (بيروت: دار الكتب، ١٩٧١م).
٦. جيمس بكنغام، رحلتي الى العراق سنة ١٨٦١م، ترجمة سليم طه التكريتي،(بغداد: اسعد، ١٩٨٦م).
٧. جيمس ريموند ولستد، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داوود باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد: ثويني، ١٩٨٤م).
٨. حسن عيسى الحكيم، الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي، (بيروت: دار المعارف للمطبوعات،٢٠٠٩م).
٩. حسين محمد القهواتي، العراق بين احتلالين العثماني الأول والثاني ١٥٣٤-١٨٢٦م (جامعة بغداد: كلية الاداب، ١٩٧٥م).
١٠. حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمية ١٥٤٦-١٩١٨م، (عمان: وائل للنشر،١٩٩٩م).
١١. روبستن بايك، قصة الاثار الاشورية، ترجمة يوسف عبد القادر، (بغداد: اسد، ١٩٧٢م).
١٢. ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة مصطفى جواد وفؤاد جميل، (بغداد: مطبعة شفيق، ١٩٦٧م).
١٣. زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م (بغداد: العاني، ١٩٨٦م).
١٤. زكي صالح، مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٦م).
١٥. ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط٣، (بغداد: البرهان، ١٩٦٢م).
١٦. سيار كوكب جميل، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦م، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩١م).
١٧. صالح خضر محمد ، الدبلوماسيين البريطانيين في العراق ١٨٣٠-١٩١٤، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٥م).
١٨. عبد الأمير محمد امين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، (بغداد: اسعد، ١٩٦٦م).
١٩. عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠-١٩١٤م، (القاهرة: مكتبة انكلو المصرية، ١٩٦٨م).
٢٠. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٨م).
٢١. عبد الفتاح ابراهيم، على طريق الهند، ط٣، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، د.ت).
٢٢. عدنان حسن محبوبه، مقومة العراقيين للنفوذ الاجنبي 1831-1750م، (النجف الاشرف: التميمي للنشر،٢٠١١م).
٢٣. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بغداد: دار ومكتبة دجلة والفرات، ٢٠٠٩م).
٢٤. علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر ١٨٦٩-١٩١٣م،(بغداد:الحكمة،٢٠٠٣).
٢٥. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥٦٦-١٩٢٢م ،(بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت).

٢٦. كلوديوس ريج، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠م ، ترجمة بهاء الدين نوري، (بغداد: السكك الحديدية، ١٩٥١م).

٢٧. مجموعة مؤلفين، بغداد باقلام رحالة، ترجمة محمد علي حلاوي، (بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٧).

٢٨. مجموعة مؤلفين، بغداد في القرن التاسع عشر كما وصفها الرحالة الاجانب، ترجمة سعاد هادي العامري، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢م).

٢٩. مجموعة مؤلفين، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة، ترجمة سعاد هادي، (غداد: دار المعرفة، ١٩٥٤).

٣٠. مجموعة مؤلفين، رحالة اوربيون زاروا العراق، (بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٧م).

٣١. محمود النائب، السكك الحديدية في العراق، (بغداد: العارف، ١٩٥٨م).

٣٢. نائل حنون، حقيقة السومريين، (دمشق: دار الزمان، ٢٠٠٧).

٣٣. وليس بدج، رحلات الى العراق، ترجمة فواد جميل، (بغداد: دار الزمان، ١٩٦٦م).

٣٤. يعقوب سركيس، مباحث عراقية، (بغداد: شركة التجارة للطباعة المحدودة، ١٩٤٨م).

٣٥. يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (بغداد: الفرات، ١٩٢٤م).

ثالثاً: الصحف والمجلات.

١. رحلة تايلر الى العراق (١٧٨٩-١٧٩٠)، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد ١١،العدد١، ١٩٨٢م.